الاتصالات الثقافية والنظرية التطورية

تطور الاتصالات الثقافية:

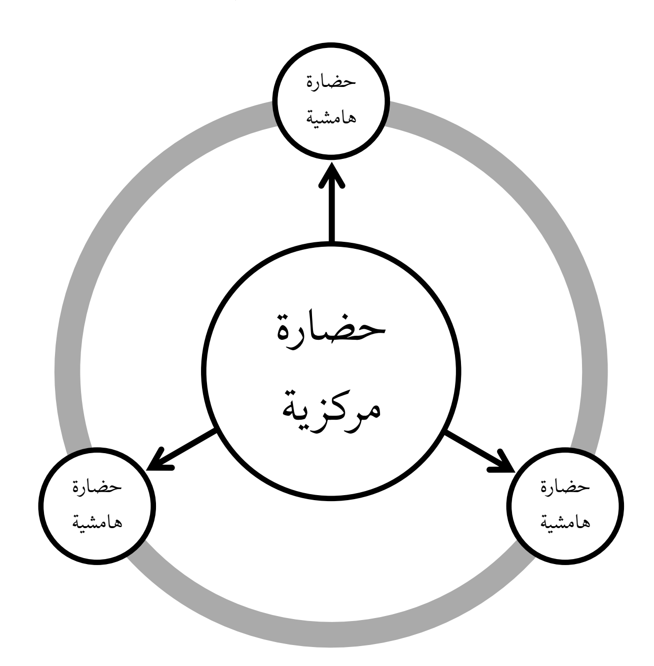
تحدث الاتصالات الثقافية بين الحضارات المختلفة حول العالم منذ القِدَم، لكنها مرَّت بمراحل تطوُّر عديدة، يمكن فهمها عبر مرحلتين أساسيتين؛ قديمة وحديثة.

الاتصالات الثقافية قديمًا:

قُسِّمَت الثقافات أو الحضارات قديمًا إلى نوعين:

1- حضارة مركزية (مركز): وهي الحضارة الأكثر بروزاً وتحكُّمًا في مجريات الأمور.
2- حضارة هامشية (طرف): وهي الحضارة ذات التأثير البسيط في أحداث العالم.

وكانت الحضارات الهامشية (الأطراف) تدور باستمرار في فلك الحضارة المركزية (المركز)، وتكون منقادة لما تفرضُه هذه الحضارة المركزية عليها بشكل أو بآخر، ولا يمكن تصوُّر قدرة أحد هذه الحضارات الهامشية على التأثير أو بدء اتصال حضاري أو محاولة إحداث تغيير كبير في العالم.



ومما تميَّز به الاتصال الثقافي في هذه الفترة ما يلي:

1- الاتصال بين المركز والطرف كان أُحادِيَّ الاتجاه، فالمركز يحدِّد بداية الاتصال ومحتواه وآلياته، وليست لدى الطرف خيارات كثيرة، فهو مضطر لقبول الاتصال والتفاعل معه وَفْق ما يرغب المركز.

2- قد يحاول أحد الأطراف القيام بما يمكن تسميته بالممانعة أو الانغلاق وعدم قبول الاتصال مع المركز، ولكن عادةً ما ينتهي هذا الأمر بفشل ذريع من قبل الطرف، حيث تتواطأ حينها جميع الحضارات المركزية والهامشية على وصف هذه الحضارة الممتنعة بأنها حضارة مارقة غير متقدِّمة، يقوم عليها مجموعة من الهمج والرعاع الذين لا يستطيعون تقبُّل هذا التقدُّم القادِم من المراكز.

3- احتاج الاتصال الثقافي قديمًا إلى تكاليف عالية وموارد كثيرة للتغلب على الجغرافيا الصعبة والزمن الطويل الذي يستغرقه إتمام الاتصال، بل كان يصل أحيانا إلى الاحتلال العسكري في سبيل إتمام هذا التواصل، ومن أمثلة ذلك التكلفة الكبيرة لغزو الإسكندر الأكبر لمصر والشرق الأوسط.

4- إذا ما انهارت ثقافة مركزية (قطب) فإنها كانت تتسبب في انهيارات متتالية للأطراف التي كانت تدور في فلكها، كما حدث عند الاتحاد السوفيتي مثلا.

5- كان نجاح الطرف وتقدُّمُه واستمراره معتمدًا في الأساس على قدرته على التأقلم مع حضارة المركز.

6- على الرغم من سيادة هذا النوع من الاتصال الثقافي لفترة زمنية طويلة، على جميع المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية، إلا أن بعض الثقافات الهامشية كانت لها مساهمات جيدة على المستوى الحضاري، ولكن المركز حرص دائما على طَمْس هذه المساهمات ليبقى هو الوحيد البارز في الصورة.

الاتصالات الثقافية حديثًا:

بدأت الصورة التقليدية للتواصل الثقافي في التغيُّر مع بدء الثورة التقنية في عالم الاتصالات خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إذ أصبح من الممكن نقل الأحداث عبر الأقمار الصناعية إلى العالم كله في نفس وقت حدوثها أو بفارق زمني بسيط جدا.

حقَّق هذا التطور في عالم الاتصالات قدرًا من التزامن سهَّل التواصل بين الحضارات، كما تغلَّب على العوامل الجغرافية، فأصبح من الممكن لشخص يعيش في بلد عربية أن يتابع حدثًا يقع أوروبا في نفس وقت حدوثه، ولكن بقي عائقان أساسيان يعيبان هذا الاتصال، هما:

1- الانتقاء: لأن هذا الشخص البعيد مسموح له فقط بمشاهدة صورة معينة من الحدث.

2- المحدودية: لأن الشخص البعيد لا يمكنه المشاركة في الحدث الذي يتم نقله، أو أن يبدي رأيه فيه، فلا يمكنه عكس الاتصال ومحاولة التأثير في الحدث.

هذان العيبان جعلا التواصل في هذه الفترة أشبه بالتواصل الحضاري قديمًا، حيث لا تزال الثقافة الهامشية تدور في فلك الثقافة المركزية ولا تستطيع التأثير فيها.

أما الطفرة الأكبر التي غيَّرت شكل الاتصال الثقافي فتتمثل في ظهور وسائل الاتصال الإلكترونية وشبكة الإنترنت، إذ حقَّق هذا التطور ثنائية الاتصال، ومكَّن الطرف من التأثير في الحدث والمشاركة فيه، وصار العالم عالَمًا واحدا والزمن زمنًا واحدًا، وهو ما عُرِف بعالم ما بعد التزامن.

بالإضافة إلى ذلك، أدى هذا التطور إلى قدر من العشوائية، إذ صار من الممكن في أي لحظة أن يتصل الطرف بالمركز أو الطرف بطرف آخر أو المركز بالطرف، وهكذا، بل قد يحدث اتصال بين أشخاص يلتقون لأول مرة فقط لأنهم تحرِّكُهم هواجس مشتركة، فصار التواصل الثقافي في صورة جديدة غير مخطَّط لها ويستحيل توقُّعُها أو توقُّع مخرجاتها.

فسرعة الاتصال في عالم ما بعد التزامن تشكِّل للمركز ميزةً وعيبًا، فهي ميزة من حيث أنها تسمح بالتغلُّب على المشكلات الجغرافية، وتختصر الوقت، وتمكِّن المركز من الوصول إلى أماكن كان يصعب الوصول إليها قديمًا، وربما كلَّفَتْه التحرك بالجيوش والغزو العسكري ليحقِّق الاتصال الثقافي الذي تطمح إليه معها، ومع ذلك فهي عيب من حيث أنها تمكِّن الطرف من عكس الاتصال بسهولة والتأثير في الأحداث، بالإضافة إلى اتخاذ الاتصال صورة عشوائيَّة يصعب السيطرة عليه.

آلية الاتصال الثقافي:

تمرُّ آليَّة الاتصال الثقافي أثناء إنتاج أي عنصر ثقافي جديد بأربعة مراحل أساسية، هي:

1- الوسطاء: يعتبر العنصر الثقافي الجديد شيئا دخيلاً على المجتمع، ولذلك يحتاج في بداية نقله إلى وسطاء يطلعون على ما يحدث في الخارج ثم ينقلون إلى الداخل ما يقتنعون به مع توضيح إيجابياته وفوائده للمجتمع، وعادةً ما تتشكَّل هذه الطبقة من المثقفين والمترجمين والصحافيين.

2- التسويق: يعمل الوسطاء على تحويل العنصر الثقافي الجديد من مجرد عنصر دخيل إلى عنصر مُمْكِن في المجتمع، وحينها تأتي مرحلة الترويج لهذا العنصر الثقافي الممكِن، حيث يتم توضيح ما يمكن أن يحقِّقُه هذا العنصر من مكاسب للمجتمع في حال تبنِّيه له كجزء من ثقافته.

3- إعادة الإنتاج: وهي دراسة كيفية إلباس هذا العنصر الثقافي الجديد ثيابًا وطنية، ومَنْحِه صفات وطنية تجعله وكأنه قد تم إنتاجه داخل هذا الوطن، ويعمل على ذلك رعاة من داخل الوطن يتبنُّون العنصر الجديد ويقومون بإعادة إنتاجه بما يتوافق مع ثقافة الوطن.

4- <u>التبنِّي الثقافي:</u> يتحول العنصر الجديد في النهاية إلى شيء تقليدي، وربما إلى شيء موروث.

مع العلم أنه ليس كل عنصر ثقافي قادر على المرور بجميع المراحل الأربعة السابقة بسهولة، فقد تتوقف آلية تبنِّيه عند أحد هذه المراحل ولا تتجاوزها، فعلى سبيل المثال لا يزال فن الأوبرا أحد العناصر الدخيلة ضيقة الانتشار في مجتمعنا رغم مروره بمرحلة الوسطاء الذين تبنُّوه، ثم مرحلة الترويج، إلا أن إعادة إنتاجه كانت ضيقة للغاية، ولذلك لم تتم آلية تبنِّي فن الأوبرا ضمن ثقافة المجتمع، كما أنه ربما لم تكن للمركز مصلحة كبيرة في نشره، ولذلك لم يبذل الكثير من الجهد في سبيل ذلك، بينما قد يضغط المركز بقوة في حالات أخرى، وربما يشتري مَن يعيدون الإنتاج في ثوب وطني، إذا كانت ما كان العنصر الجديد سيحقِّق له مصالح سياسيَّة أو اقتصادية أو عسكرية هامة.

ويلاحظ أن طبقة الوسطاء في زماننا لم تَعُد مقتصِرَة على مجموعات محدَّدة كالمثقفين أو المترجمين أو الصحافيين، إذ تستطيع الآن شريحة متسعة من المجتمع أن يطلعوا على ما في الخارج وأن يتبنُّوه ويحاولوا إعادة نشره وترويجه، بل قد يشمل ذلك المجتمع كله تقريبا مع تطوُّر الاتصالات ووسائلها.

<u>محتوى الاتصال الثقافي:</u>

اتفق الباحثون على أن الرسائل أو المحتوى الثقافي الذي يتم تبادله بين المراكز والأطراف أثناء تواصلهم يمكن تصنيفه إلى نوعين أساسيين، هما:

1- <u>تِقَنِي (فنِّي):</u> ولا يعنى به الجانب التكنولوجي فقط، وإنما كل ما له علاقة بأنماط الحياة المختلفة، فيشمل أنماط الموضة، ومحلات الوجبات السريعة، وأنماط المعيشة، وما شابه ذلك.

2- <u>أيديولوجي:</u> وهو مجموعة من الأفكار والمعتقدات هناك رغبة في نقلها.

كما اتفق الباحثون على أن المحتوى التقني الفني أسهل في نقله (عبر المراحل الأربعة سالفة الذكر) من المحتوى الأيديولوجي، إذ أن نقل المحتوى الأيديولوجي يتطلب مخاطبة الوعي الباطن، وقد يتطلب تغيير بعض الأمور الصلبة المتأصِّلَة، كالأمور المرتبطة بالمعتقدات أو الموروثات القديمة.

<u>النظرية التطورية:</u>

استطاعت الحضارة الأوروبية السيطرة على العالم من خلال عدة أمور، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية المعتمدة في العالم، فهي تحظى بأكبر قدر من التشجيع والاعتماد في كل المجالات والأوراق العلمية والبحثية، حتى أن معظم المنصات والدوريات

البحثية الشهيرة لا تقبل النشر إلا باللغة الإنجليزية، وهو ما يعكس الحرص الشديد على أن تكون هذه اللغة هي اللغة الأولى للمعرفة والأعمال.

2- أصبح النمط التعليمي الأوروبي هو النمط الدولي المعترَف به على مستوى العالم، وتقاس درجة تقدُّم أي نمط تعليمي آخر بمدى قربِه أو بعده من هذا النمط الأوروبي.

3- أصبحت الهياكل المعتمدة للشركات والكيانات الاقتصادية على مستوى العالم مستمدَّة في الحقيقة من الهياكل الأم التي تم تصديرها للعالم على أنها الأمثل ولا يمكن أن نجد أفضل منها.

4- وُضِعت مؤشرات التنمية المعتمدة في العالم بحيث تقيس معدلات الاستهلاك وليس معدلات الإنتاج، فمثلا يتم تشجيع الدول على زيادة معدلات استخدامها للهواتف المحمولة (الجوَّالات)، بينما قد لا يُسْمَح لها بإنتاج أي شيء متعلِّق بهذه الجوالات.

وقد كان اعتماد وفرض هذه العناصر (اللغة والنمط التعليمي والاقتصادي والتنموي) على أنه الأفضل على المستوى العالمي مبنيًّا على قَدْر من العنصرية وتحقير المجهودات والقدرات البشرية الأخرى، بل قَدْر من الالتواء، كما يظهر في عدم السماح للمجتمعات الأخرى بإنتاج التقنية أو المعرفة، وإنما يتم تشجيعها على الاستهلاك فقط.

وتمثِّل هذه النقاط الأربع النظرية التطوريَّة للحضارة الأوروبية، التي تفترض أن المجتمعات البشرية لا يمكن أن تتطوَّر وتتحضَّر إلا عبر مسار واحد، يتم بقيادة أوروبا، وينتهي بالوصول إلى ما عليه أوروبا، فهي التي تملي على المجتمعات الخطوات التي يجب اتباعها كي تحقق التقدُّم والحضارة، كما أنها وضعت معيارًا وحيدًا لقياس مدى التقدم الذي تحقِّقه المجتمعات في هذا المسار، وهو المعيار التقني، وتحديدا استهلاك وانتشار التقنية وليس انتاجها أو تصنيعها.

<u>الإسلام والاتصال الحضاري:</u>

الإسلام وصياغة الثقافة:

اعتمد الإسلام نظامًا مؤسسيًّا كاملا منذ البعثة النبوية وحتى انهيار الخلافة العثمانية، إذ لم يفصل بين العبادات والمعاملات، وكان المسجد مؤسسة كاملة تتضمن كل شيء تقريبًا حتى السياسات الخارجية للدولة، وتم صياغة الثقافة ضمن الإطار الإسلامي، بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية بشمولها وكثافتها.

أما عقب انهيار الخلافة العثمانية فقد أدى الاستغناء عن الإسلام كنظام مؤسسي من خلال الفصل بين المعاملات والعبادات إلى اختفاء الرابط الثقافي والعقائدي الذي كان ضم الشعوب الداخلة تحت الخلافة والمنتشرة على مساحات متسعة من العالم، فصار من الضروري التفكير في ملء الفراغ الناتج عن اختفاء هذا العامل الثقافي، وبرزت أسئلة ثقافية تقليديَّة تشبه إلى حد ما أسئلة الإنسان الأول، الذي تساءل عن هذا العالم الذي اعتبر مجهولاً بالنسبة له.

وكما أن الإنسان الأول حاول تفسير العالم الغامض حولَه عن طريق وضع الأساطير والافتراضات القائمة على أن كل شيء خارج معرفته هو سيئ ومخيف، كانت الثقافة الوطنية التي هي انعكاس مباشر للأفكار القومية هي الثقافة الأبرز خلال المرحلة التي تلت انهيار الخلافة، إذ تركِّز هذه الثقافة على أن الأمان محصور داخل المحيط المعروف للدولة، وأن كل ما هو خارجها شر وخوف، وقد ساعد على انتشار هذه الثقافة تشجيع وإذكاء بريطانيا لها، باعتبارها عامل مساعد على تنفيذ مخططاتها في وراثة الدول العثمانية وممتلكاتها، حتى أن كثيرا من المنح الدراسية لأبناء هذه الشعوب ركَّزَت على دراسة الفلكلور والأدب الشعبي للمساعدة في تعميق وتأصيل الأفكار القومية.

ثم تعمَّق الإشكال حينما نُظِر إلى هذه الثقافة الوطنية بعد ذلك على أنها تضم العديد من الثقافات الأخرى، فأصبح هذا الجزء الثقافي الذي نتج في الحقيقة عن تشظِّي الثقافة الأم الإسلامية، أصبح ينظر إليه على أنه يضم مجموعة أخرى من الثقافات، وهي عملية انشطارية لن تنتهي إلا بوضع حدود لها.

الإسلام والتصنيف الحضاري:

كان معيار العقيدة هو المعيار الأساسي لتصنيف الإسلام للحضارات والثقافات الأخرى أثناء التواصل معها، فكانت الدول تصنَّف على أنها دار سلم، أو دار عهد، أو دار حرب، وهو تقسيم متوازن يراعي جميع العوامل مثل العهود بين المسلمين وغيرهم.

بدأ هذا التصوُّر أو التصنيف في التلاشي منذ انهيار الخلافة العثمانية، ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن لم يتمكَّن العالم العربي أو الإسلامي من صياغة أي تصوُّر منطقي آخر يوضِّح علاقة الدول العربية بالعالم، سواء على المستوى الثقافي أو السياسي، وهو ما أدى إلى تفسير هذه الدول لغزو بريطانيا أو فرنسا لها في تلك الفترة بطريقة غربية مبنيَّة على رؤىً مستوحاة من الخارج، فظهر مصطلح الاستعمار الذي ليس فيه أي خصوصية تميِّز رؤية هذه الدول للعالم، بينما كان تفسير هذا الغزو بناء على معيار التصنيف الإسلامي يقتضي وصفها بأنها حملات صليبية.